kitabweb-2013.forumaroc.net

المناهل

5

المناهل

تصدرها
وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية
الرباط - المغرب

العدد الخامس — ربيع الأول 1396
السنة الثالثة — مارس 1976

الكلمة والكلام

محمد العربي الخطابي

للألفاظ سحر وأى سحر ، يعلم ذلك الذين أوتوا سر الكلمة ، وفتنوا بها منطوقة أو مكتوبة ، شعرا أو نثرا .

ليست الألفاظ مجرد مواد معجمية جافة أو مفردات لغوية جامدة ، بل انها سمات تحمل فى طياتها بذور التطور ، وتزخر بالايحاءات الفكرية والوجدانية .

وقد تعقبت طائفة من الألفاظ التى نستخدمها فى حياتنا اليومية ، فتكشف لى من أبعادها ودلالاتها ما أدهشنى .

وسأقتصر فى هذا المقال على البحث فى لفظ « الكلمة » ، هذا الجذر الذى يتألف من كاف ولام وميم .

ولست أزعم أننى أقوم فى هذا ببحث علمى ، فليس هذا من شأنى ولا أنا من أهل التخصص فيه ، انما هى جولة أقوم بها ورائدى فى ذلك الذوق وحده وقصدى أن أوفق الى الكشف عن بعض مكامن الطاقة الفكرية والرمزية للكلمة .

* * *

تعلمنا ونحن أطفال فى المدارس أن للكلمة والكلام معنى اصطلاحيا يختص به علم النحو . وقد أدركنا فيما بعد أن « الكلمة » فيض من المعانى والدلالات والأفكار ، شأنها فى ذلك شأن « الكلام » .

وقد تكون الكلمة لفظا واحدا ، وهو ما عبر عنه ابن هشام فى (شرح شذور الذهب) بقوله : « الكلمة قول مفرد ، والمراد بالقول : اللفظ الدال على معنى ، والمراد بالمفرد : « ما لا يدل جزؤه على جزء معناه » ، فهى بهذا المعنى : « اللفظة الواحدة ». وتكون الكلمة جملة تامة ، كما فى قوله تعالى : « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة . . . » فالمقصود هو الجملة التامة لا اللفظة المفردة ، وتكون أكثر من جملة ، فتسمى القصيدة من الشعر كلمة ، والخطبة كلمة .

وتجمع الكلمة على كلم وكلمات . والكلام اسم جنس ، وقد يكون جمعا لكلمة .

والكلام بمعناه الاصطلاحى هــو « ما تضمن كلمتــين بالاسناد » ، كما جاء فى (التعريفات) للجرجانى ، ويوضــح ابن هشام ذلك بقوله : « الكلام قول مفيــد مقصــود . . . أى الدال على معنى يحسن السكوت عليه » .

والكلم معناه الجرح ، يقال مكلوم الفؤاد أى مجروحه .

والكليم : الذى يكالمك أو الذى تكلمه ويكلمك . وكالمته : **حادثته** . **والتكالم** أن يتكلم الواحد الى الآخــر بعد هجــر وقطيعة : « تكالم المتقاطعان ، أى كلم كل واحد منهما صاحبه ، ولا يقال : تكلما . ورجل **تكلام وتكلامة** : جيد الكلام فصيح . ورجل **كلمانى** كثير الكــلام .

* * *

يقابل لفظ « الكلمــة » فى اللغة اللاتيــنية : verbum

ومنــه verbe بالفرنسية و verbo بالاسبانية . والمعنى الأصلى لهذه اللفظــة هو حسب (المعجم الموسوعى الكبــير

لاروس) : « الشيء المنطوق chose énoncée » ، وتـدل هذه الكلمة فى جوهرها على الفعل والحركة ، رأى فيهـا النحويون القدامى العنصر الأساسى للشيء المنطـوق ؛ وهى تـدل على « الفعل » كما تعنى « الكلمة » التى هى التعبير الشفوى عن الفكر . وفى هذا المعنى يقول الكاتب والمؤرخ الفرنسى جـول ميشليه J. Michelet : : « الانسان يسهر ، وكلمته تثـير بـلا انقطاع شعلة الحياة وتؤبدها » .

ونجد فى المعاجم الفرنسية لفظ Parole وأصله اللاتينى Parabola و Paraula ، ويقابلهـا فى الاسبانيـة Habla وفى الانجليزية Speech ولعل ترجمتها العربية « الكلام » .

يعرف قاموس روبير الكبير Grand Robert الكلام (parole) بأنه « ملكة التعبير ونقل الأفكار بواسطة نظـام من الاصوات المنطوقة ، وهو أيضا ممارسة هذه الملكة » وفى هذا المعنى يقول موليير فى (مسرحية الزواج القسرى) « وهب الانسان الكلام ليعبر به عن فكره . ولما كانت الافكار هى صور الاشياء ، فان كاماتنا هى صور أفكارنا » .

وقد أدرك اللغويون العرب القدامى أن الكلام ليس مجرد أصوات ينطق بها أو رموز كتابية ترسم على الورق ، بل انها

كذلك المعانى التى تنطوى عليها الالفـــاظ . ويقـــول الراغـــب الاصفهانى فى (الغريب فى مفردات القرآن) : « فالكلام يقع على الالفاظ المنظومة وعلى المعانى التى تحتها مجموعة » .

يقـــول أصحاب الموسوعـــة الفلسفيـــة التى أشرف على وضعها م. روزنتال و ب. يودين (ترجمة سمير كرم) « ان الكلام هو نشاط الانسان الذى به يتواصل مع أقرانه من الناس، معبرا ومبلغا أفكاره بواسطة اللغـــة . والكلام هو استخـــدام اللـــغـــة » .

هذا ونجد فى اللغة الفرنسية كذلك لفظـــة Mot وأصلهـــا اللاتينى Mottum ومعناها الاصلى « الزمجرة grognement » . ويقابـــل Mot فى الانجليزية Word وفى الاسبانيـــة Palabra وتعرفها القواميس الفرنسية الحديثة بكونها صوتا أو مجموعة من الاصوات المنطوقـــة » يقـــول العالم اللغـــوى دارمستريرDarmesterer صاحب كتاب (حياة الالفاظ) بأنها « صوت أو مجموعة أصوات منطوقة يعيرها المتكلمون بها قيمة فكرية . . . ». وربما يكون المقابل العربى لـ **Mot** هو « اللفظة » .

ونعود الى (الموسوعة الفلسفية) التى سبقـــت الاشارة اليها ، لنرى أن اصحابها يقسمون الكلام الى :

1) سلبى (حسى) مثل الادراك الحسى وفهم كلام الآخرين ـ وهذا ما عبر عنه الراغب الاصفهانى بالكلام « المدرك بحاسة السمع » كما سنرى .

2) ايجابى (فعلى) مثل النطق بأفكار ومشاعر ورغبات المرء الخاصة . . . فى الحديث يسمع الانسان ويفهم ، وحين يسمع الانسان ويفهم فانه يتكلم .

وفضلا عن نوعى الكلام المعروفين وهما الشفوى والكتابى ، فهناك الكلام الداخلى وميزته الخاصة النطق غير المسموع للاصوات .

ويرى بعض الفلاسفة المحدثين أن الكلام الباطنى (أو الداخلى) هو تتابع صور سمعية تؤلف حياة الضمير .

معانى الكلام

ذهب ابن هشام الى أن الكلام ، من حيث معناه اللغوى ، يطلق على ثلاثة أمور :

أولها ، الحدث الذى هو التكليم ، وهو فى هذه الحالة يعمل عمل الافعال :

قالوا : كلامــك هنــدا وهى مصغيــة
يشفيك ؟ قلت صحيح ذاك لو كانا

وفى هذا يقول أبو هلال العسكرى فى كتابــه (الفروق فى اللغة) : « الفرق بين الكلام والتكليم هو أن التكليم تعليــق الكلام بالمخاطب فهو أخص من الكلام » .

ثانيها : المعنى الذى يقوم فى النفس ، فيسمى ذلك الذى تخيلته كلاما ، قال الاخطل :

لا يعجــبــنــك من خطيــب خطبــة
حتى يــكــون مــع الكــلام أصــيــلا

ان الكــلام لفى الــفــؤاد ، وانــمــا
جعــل اللســان على الفــؤاد دلــيــلا

ولعل الكلام بهذا المعنى هو ما عبرت عنــه (الموسوعــة الفلسفية) التى سبق ذكرها ، **بالكلام الايجــابى** .

والثالث : الالفاظ المنطوقة والمكتوبة والرموز ، أو كمــا قال أبو هشام : ما تحصل به الفائدة سواء كان لفظا أو خطــا أو اشارة أو ما نطق به لسان الحال . والدليل على ذلك فى الخط :

« القلم أحد اللسانين » وتسميتهم ما بين دفتى المصحف (كلام الله) . والدليل عليه فى الاشارة قوله تعالى : « آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام الا رمزا » (آل عمران ، 41) .

والدليل عليه فيما نطق بـــه لسان الحال قـــول نصيب فى مدح سليمان بن عبد الملك :

فعاجـــوا فأثنـــوا بالذى أنـــت أهلـــه

ولـــو سكتـــوا أثنـــت عليـــك الحقائب

فاذا كانت هذه هى معانى الكلام ، فى اللغة ، فى نظر ابن هشام ، فان الراغب الاصفهانى يـــرى فى كتابـــه (الغريـــب فى مفردات القرآن) أن الكلم التأثير بحاسة السمـــع ، والكلـــم بحاسة البصر ، وكلمته جرحته جراحة بان تأثيرها ، ولاجتماعهما فى ذلك قال الشاعر :

والكلم الاصيل كأرعب الكلم

« الكلم الاول جمع كلمـــة ، والثـــانى جراحات ، والارعب : الاوســـــع » .

فاذا اعتبرنا أن الاشارة نوع من الكلام ، كما سبق ذكره ، فان ادراك الكلام بهذا المعنى لا يكون بحاسة السمع ، بل بالبصر واستعمال الذهن لفهم المعنى الاصطلاحى للاشارات .

الكلام والقول

يعرف ابن سيده الكلام هذا التعريف المقتضب : « الكلام القول » وهو تعريف يحتاج الى تمحيص وايضاح ، لذلك فان ابن منظور يعلق فى (لسان العرب) على هذا التعريف بقوله : « وقيل الكلام ما كان مكتفيا بنفسه وهو الجملة ، والقول ما لم يكن مكتفيا بنفسه وهو الجزء من الجملة » .

ويذهب الراغب الاصفهانى الى أن الكلام عند كثير من المتكلمين لا يقع الا على الجملة المركبة المفيدة وهو أخص من القول ، فان القول يقع عندهم على المفردات ، والكلمة تقع عندهم على كل واحد من الانواع الثلاثة ، (الاسم والفعل والاداة) ، وقد قيل بخلاف ذلك .

وقال سيبويه ــ فيما نقله عنه ابن منظور ــ : « اعلم أن قلت انما وقعت فى الكلام على أن يحكى بها ما كان كلاما لا قولا . ومن أدل الدليل على الفرق بين الكلام والقول اجماع

الناس على أن يقولوا : القرآن كلام الله ولا يقولوا : القرآن قول الله » فكلام الله اذن أعم وأوسع . وقوله تعالى جـــزء من كـــلامـــه .

وعندى أن الكلام أعم من القول ، ذلك أننا حينما نقول « كلام العرب » فاننا نقصد ، ولا شك ، تراثهم اللغوى كله . جاء فى (المزهر) للسيوطى أن بعض الفقهاء ، قـــال : « كلام العرب لا يحيط به الا نبى » والمعنى هنا لسان العرب وتراثهم الادبى . وفى هذا المعنى قال الامام الشافعى : « لسان العرب أوسع الالسنة مذهبا ، وأكثرها ألفاظا ، ولا نعلم أن يحيـــط بجميع علمه انسان غير نبى » .

وكلام العرب هو شعرهم ونثرهم ــ قـــال السيوطى : « ذهب علماؤنا أو أكثرهم الى أن الذى انتهى الينـــا من كلام العرب هو الاقل . ولو جاءنا جميع ما قالوه لجاءنا شعر كثير وكلام كثير » ويقتضى الحال أن يكون المقصود بهذا « الكلام الكثير » هو النـــثـــر .

أما القول فهو مجرد حكاية جزء من الكلام . ومن قبيل ذلك ــ مثلا ــ قول الفرزدق :

والشيب ينـــهض فى الشباب كأنـــه
لـــيـــل يصيـــح بجانبـــيـــه نهـــار

ويعنى بالليـــل هنا فـــرخ الكروان أو الحبارى ، وبالنهار فرخ القطاة . فهذا « قـــول » نستشهـــد به من « كـــلام » الفرزدق ، أى ديوانه الشعرى كله .

ان « القول » شيء تحده ، فى حيـــز معلوم ، ألفـــاظ أو عبارات محدودة نحو قولك ــ من كلام على بـــن أبى طالب : « الناس أبناء الدنيا ولا يلام الرجل على حب أمه » . ان كلام على بن أبى طالب كثير فيه خطبه ورسائله ومواعظه وما تضمنه ذلك من حكم . والحكمة التى سقناها ما هى الا قول مستخلص من كلام على بن أبى طالب .

والكلام لا يحده ، فى الغالب ، حيز معلوم ، فهو بذلـــــك شامل مطلق . مثال ذلك قول كثير :

لـــو يسمعـــون كما سمعت **كلامهـــا**
خـــروا لعـــزة ركـــعـــا وســـجـــودا

فكلام عزة هنا مطلق ، أى كل كلام يصدر عنها باللفظ أو بالاشارة والايماءة . ومن قبيل ذلك ، أيضـــا ، قـــول ابن أبى ربـــيـــعـــة :

أشـــارت بطـــرف العين خيفـــة أهلهـــا

اشـــارة مـــحـــزون ولـــم تـــتكـــلـــم

فأيقنـــت أن الطرف قـــد قال مرحبـــا

وأهـــلا وسهـــلا بالحبـــيـــب المتـــيـــم

انها تكلمت باشارة من لحظها ولم تقل شيئا باللفظ والنطق.

ومن الطريـــف فى هذا البـــاب ، ما أوزده ابن حـــزم فى (طوق الحمامة) من أنواع الاشارة بلحـــظ العين ومعانيـــهـــا المختلفـــة ، اذ قـــال :

« فالاشارة بمؤخر العين الواحدة نهى عن الامر ، وتفتيرها اعلام بالقبول وادامة نظرها دليـــل على التوجـــع والاســـف ، وكسر نظرها آية الفرح .

والاشارة الى اطباقها دليل على التهديد ، وقلب الحدقـــة الى جهة ما ثم صرفها بسرعة تنبيـــه على مشار اليه .

والاشارة الخفيـــة بمؤخر العينين كلتاهما سؤال ، وقلب الحدقة من وسط العين الى الموق بسرعة شاهد المنـــع ، وترعيد الحدقتين من وسط العينين نهى عام ، وسائـــر ذلـــك لا يـــدرك الا بالمشـاهـــدة » .

فهذا كله من قبيل الكلام بالاشارة ، تؤديه العين التى هى ـ كما قال ابن حزم ـ « رائد النفس الصادق ، ودليلها الهادى ومرآتها المجلوة التى بها تقف على الحقائق وتميز الصفات وتفهم المحسوسات » .

واذا كان القول لا يصدر الا عن العاقل ، فان الكلام قد يكون صامتا وقد نتخيل أنه يصدر عن غير العاقل ، من ذلك قول المعرى فى (اللزوميات) :

أراك حسبت النجم ليس بواعظ
لبيبا وخلت البدر لا يتكلم

وقوله :

وعظ الزمان فما فهمت عظاته
وكأنه فى صمته لا يتكلم

والناس شتى من حليم مظهر
جهلا يعز وجاهل يتحلم

والقول يسمع بالأذن حينما ينطق به اللسان ، ويقرأ بالعين المبصرة حين يجرى به القلم ، أما الكلام فانه ، زيادة

على اشتراكه مع القول فى الخاصيتين المذكورتين فانه ينفـــرد بخاصية ثالثة من حيث انه قد يكون كلاما باطنيـــا كما سبـــق أن بـــيـــنـــاه .

الكـــلام هو الاســـلوب

يرى ابن منظور « أن الكلمة الواحدة لا تسجى ولا تحزن ولا تتملك قلب السامع ، وانما ذلك فيما طال من الكلام فأمتع سامعيه لعذوبة مستمعه ورقة حواشيه » ، ونلاحظ أن الكلام بهذا المعنى يدخل فى باب الادب من حيث انه يصـــاغ فى قالب جمالى . والواقـــع أن هذا الوصف لا ينطبـــق على كل كلام ، فمنه ما هو بـــذىء أو متهالك ، ومنه مـــا لا يطـــرب السامع ولا يسجيه ، ومنه ما هو حوشى أى وحشى وغريب ، ومنـــه الواضح أى « الذى يفهمه كل سامع عرف ظاهر كلام العرب » ، كما قال السيوطى فى (المزهر) .

ومن الكلام المشكل « أى الذى يأتيه الاشكال من وجوه ، منها غرابة لفظة » كما قال أبو فراس فى (فقه اللغـــة) ونقله عنه السيوطى فى (المزهر) .

والكلمة ، بالافراد ، قد تكون طيبة أو خبـــيثة . جاء فى **التنزيل الكريم** « ألم تر كيف ضرب الله مثلا**كلمة** طيبة كشجرة

طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلهـا كل حين باذن ربها . . . ومثل كلمة خبيـثة كشجرة خبيثة اجتـثت من فوق الارض ما لها من قرار » (ابراهيم ، 24 ، 25 ، 26) .

وسميت القصيدة من الشعر « كلمة » لأنها ـ كما قال أبو هلال العسكرى فى كتابه (الفروق فى اللغة) ـ : « واحدة من جملة القصائد » ، والكلمة هى الخطبة ، يقال ألقى فـلان كلمة ، أى خطابا .

ويقال فلان « نافذ الكلمة » ، أى أنه ذو نفوذ وسطوة .

وتأخذ الكلمة ، فى علوم البلاغة أبعـادا مختلفة . فتكون فصيحة حيـنما تكون خالصة من تنـافر الحروف ، والغرابة ، ومخالفة القياس اللغوى .

ويكون الكلام فصيحا اذا كان خالصا من ضعف التأليف وتنافر الكلمات والتعقيد . وقد أفاض القول فى هذا علماء البلاغة من أمثال الخطيب القزيونى فى (الايضاح) ، وقدموا بين يدى ذلك شروحا وشواهد كثيرة يمكن الرجوع اليها . الا أنـه من المناسب فى هذا المقام ـ ونحن نتحدث عن الكلمـة والكلام ـ أن نبين الفرق بين الفصاحة والبلاغة كما أوضحه أبـو هلال العسكرى فى (كتاب الصناعتين) بشكل قد يلائم الذوق الادبى الحديث . قال : « . . الفصاحة تمام آلـة البيان فهى مقصورة على اللفظ ، لأن الآلة تتعلق باللفظ دون المعنى ، والبلاغة انما

هى انهاء المعنى الى القلب فكأنها مقصورة على المعنى » .

ويكون الكلام صناعة أو صنعة حينما يستعمله صائغوه ، كل حسب موهبته ، وفى ذلك يقول أبو هلال العسكرى : « والناس فى صناعة الكلام على طبقات : منهم من اذا حاور وناظر أبلغ وأجاد ، واذا كتب أحسن ، واذا حاور وأملى أساء . ومنهم من يحسن فى جميع هذه الحالات ، ومنهم من يسىء فيها كلها » فاللهم لا تجعلنا من هذه الزمرة الاخيرة !

ومن الكلام ما هو فضول ، وفضول الكلام الزائد منه والذى لا فائدة فيه ، ومثله الحشو .

وقد تتسم الكلمة بالجمال والصوت معاً ، أو بأحدهما دون الآخر ، وقد تخلو من الوصفين . قال حكيم الصين لاوتسو : « رب كلمة جميلة وهى خالية من الصدق ، ورب كلمة صادقة لا جمال فيها » .

اللغة والكلام

أن حدود الاختلاف فى المعنى بين « اللغة » و « الكلام » ضيقة جدا قد تسبب بعض اللبس ، وقد لاحظنا أن عدداً من فقهاء اللغة العربية الأقدمين ربما استعملوا لفظ « الكلام » وأرادوا به اللغة . وقد سمى ابن هشام كتابه المعروف « شرح شذور الذهب فى معرفة **كلام العرب** » ، وهو يقصد بكلام

العرب لغتهم ولا شك ، مع ما تتضمنه هذه اللغـــة من شعـــر ونثر وحكم وأمثال . وهذا التضمين هو الذى يضع الحدود بين « الكلام » و « اللغة » بالمفهوم الحديث .

يقول ابن جنى فى الخصائص : « حد اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم » .

ويعرف (لا روس القرن العشرين) اللغة language ، بأنها « كل وسيلـــة من وسائل التعبير عن الافكار » ويعرفهـــا جسبرسين Jespersen فى (الموسوعة البريطانية) بقوله : « انها ــ أى اللغة ــ كل وسيلة من وسائل الاتصـــال (أو التواصل) بين الناس الكائنات الحية » أما معجم لالانـــد
(Lalande, Vocabulaire technique et critique de la philosophie)
فانه يقول ، ان اللغة هى كل نظام من الرموز يمكن استخدامه كوسيلة للاتصال (أو التواصل) .

ويمكن أن تشمل هذه التعريفات ــ زيادة على الحروف التى تستخدم فى الكتابة ــ عديدا من أنواع الرموز والاشارات التى تستعملها فئات من الناس فى أغراض خاصة ، من ذلك ، مثلا طريقة تعليم الصم والعمى ، ولغة الاشارة لبعض قبائل الهنود الحمر ، وطريقة (مورس) .

واذا كان ابن جنى يعرف اللغة بأنها « أصوات » ، كما سبق ان قلنا ، فان ابن الحاجب يعرفها فى مختصره بقوله : « اللغة كل لفظ وضع لمعنى » بينما يقول الأسنوى فى شرح منهاج الاصول : « اللغات عبارة عن الالفاظ الموضوعة للمعانى » .

ويحدث هاذان التعريفان اللذان نقلهما السيوطى فى (المزهر) بعض الالتباس فى فهمنا ، فاذا اعتبرنا أن المقصود بالمعانى هى الافكار ، فان ما قاله ابن الحاجب والاسنوى يمكن أن يكون تعريفا للكلام لا للغة ، وقد سبق أن استشهدنا بما قاله الراغب الاصفهانى وبعض المعاجم الغربية فى تعريف الكلام.

على كل حال فاننى أفضل ما قاله ابن جنى فى تعريف اللغة ، ولو أنه لم يوضح أن اللغة تعتبر وسيلة للتواصل بين الناس ، فاقتصر على القول بأنها « أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم » ، والواقع أن التواصل موجود ، ذلك لان التعبير عن الاغراض لا يكون الا بين الفرد والفرد داخل الجماعة .

وما دمنا بصدد الخوض فى مسألة الاختلاف الموجود فى المعنى بين « اللغة » و « الكلام » فاننى لم أجد فى ذلك خيرا مما قاله الاستاذ العالم الصديق الدكتور تمام حسان فى كتابه

المبتكر (اللغة العربية : معناها ومبناها) : « فالكلام عمل واللغة حدود هذا العمل ، والكلام سلوك واللغة معايير هذا السلوك ، والكلام نشاط واللغة قواعد هذا النشاط ، والكلام حركة واللغة نظام هذه الحركة ، والكلام يحس بالسمع نطقا وبالبصر كتابة واللغة تفهم بالتأمل فى الكلام ، فالذى تقوله أو تكتبه كلام ، والذى نقول بحسبه ونكتب بحسبه هو اللغة فالكلام هو المنطوق وهو المكتوب واللغة هى الموصوفة فى كتب القواعد وفقه اللغة والمعجم ونحوها » .

وأود أن أضيف بأن الكلام نشاط انسانى فردى فى جوهره ، واللغة ظاهرة اجتماعية .

علم معانى الكلام

الكلمات تتطور ، من حيث المعنى والمبنى ، وذلك تبعا لتطور الزمان والناس الذين يستعملون الكلمات لأغراضهم اليومية .

فمثلا لم يكن أحد فى عصر المأمون ـ وهو من العصور الاسلامية الزاهرة ـ يتصور أن كلمة « صوت » يمكن أن يكون لها فى يوم من الأيام المعنى الذى يؤديه اليوم فى الأنظمة

الانتخابية حينما يقال أدلى ناخب أو عضو **بصوته** . وكذلك القول بالنسبة لكلمات من أمثال الطيار ، والخيل (قوة المحرك الآلى) والعقدة ، والتصميم (المخطط) ، والصاروخ ، والبرق (التلغراف) ، والتيار (الكهربائى) ، والاشتراكية ، والتضخم (المالى) ، والاعلام . . .

ليس هذا فقط ، بل حتى الكلمات التى نستعملها نحن قد يكون لها معان مختلفة بحسب ما يقصده كل منا . فكلمة « القانون » ـ مثلا ، قد تعنى ـ حسب المقصود ـ الآلة الموسيقية المعروفة ، أو الاحكام التشريعية الاساسية ـ وقل مثل ذلك فى كلمات كالحساب ، والجدول ، واللسان ، والفقرة ، والنظام ، والعهد ، والخاتم ، والورقة ، والعين .

ولدراسة معنى الكلمات وتطورها دراسة عملية نشأت فى العصر الحديث صناعة لغوية جديدة أطلق عليها (السمانتيات Sémantique) أو علم معانى الكلمات . وهذا العلم يعنى عناية خاصة لا بالكلمات نفسها ، بل بتفاعل معانى الكلمات أو بتجاوب الانسان مع الرموز والاشارات والانظمة الرمزية ، بما فى ذلك اللغة كما قال العالم اللغوى س.ا. هاياكاوا ، الكندى الاصل ،

فى دراسة له نشرت فى كتـــاب (مغامرات العقـــل) ، ترجمـــة الدكتور محمد فيـــاض .

ويضيف هاياكاوا قولـــه : « من الافكار الاساسية ، فى علم تطور المعنى العام ، ان معنى الكلمـــات ــ أو غيرهـــا من الرموز ــ لا يكون فى الكلمات نفسها ، وانما يكون فى تجاوبنا نحن مع معنى هذه الكلمات » .

الفكرة قبل الكلمـــة

نقرأ فى كتاب (أصل التفاوت بين الناس) لجـــان جاك روسو : « اذا كان الناس فى حاجة الى الكلمة ليتعلموا التفكير فانهم لأشد حاجة الى تعلم التفكير كى يجدوا فن الكلام » .

وقد اهتدى الى نظرية مشابهة لهذه فلاسفة سبقـــــوا روسو بعدة أحقاب نذكر من بينهم ابن طفيل الطبيب الفيلسوف الاندلسى فى قصته الطريفة (حى بن يقظان) .

يحكى لنا ابن طفيل عن أول لقاء تم بين آسال وحى ابن

يقظان (*) ، فى الجزيرة الخالية التى ولد فيها هذا وكبر وكانت قد أرضعته ظبية وهو طفل ، وقد قصد آسال هذه الجزيرة لينعزل فيها عن الناس ، بعد أن غادر بلاده .

يقول ابن طفيل عن ذلك اللقاء :

« ولما رأى آسال (ان حى بن يقظان) لا يتكلم ، أمن من غوائله على دينه ورجا أن يعلمه الكلام والعلم والدين . . . فشرع آسال فى تعليمه الكلام أولا : بأن يشير له الى أعيان الموجودات ، وينطق بأسمائها ، ويكرر ذلك عليه ، ويحمله على النطق فينطق بها مقترنا بالاشارة ، حتى علمه الاسماء كلها ، ودربه قليلا قليلا حتى تكلم فى أقرب مدة . فجعل آسال يسأله عن شأنه ، ومن أين صار الى تلك الجزيرة ، فأعلمه حى بن يقظان أنه لا يدرى لنفسه ابتداء ولا أبا ولا أما أكثر من الظبية التى ربته . ووصف له شأنه . **وكيف ترقى بالمعرفة حتى انتهى الى درجة الوصول** » .

(*) الاشخاص الذين تدور حولهم حوادث القصة ثلاثة : **حى بن يقظان** ويرمز الى الفطرة البشرية السليمة والعقل النير القادر على الاهتداء الى الحقيقة . **آسال** ويرمز الى الانسان المستنير المتعلم الذى يحاول — وهو يعيش فى مجتمع متمدن — التوفيق بين النصوص والعقل ، **سلامان** ، الذى يرمز الى الاتباع والتمسك بظاهرة النص فى تلمس الحق وادراكه .

لقد تعلم حى بن يقظان التفكير حينما لم يكن فى حاجة الى الكلام اذ كان يعيش وحده فى جزيرة منعزلة ، وتوصل الى معرفة الله بالتفكير والتدبر ، وبلغ فى ذلك درجة الوصول ، أى المعرفة المؤدية الى الاتصال بالذات الالهية .

ولم يصبح حى بن يقظان فى حاجة الى الكلام الا حينما لقى مخلوقا من جنسه ، ودعته الضرورة الى التواصل عن طريق الاشارة أولا ـ وهو نوع من الكلام ـ ثم الالفاظ التى تعلمها من آسال ثانيا .

فالكلام ضرورة يفرضها فى الغالب التقاء البشر ورغبتهم فى التواصل والتعايش ، أما التفكير فهبة من الله خص بها بنى آدم ، وميزهم بها على سائر مخلوقاته الحية .

يروى السيوطى فى (المزهر) عن الامام فخر الدين الرازى واتباعه هذا القول : « السبب فى وضع الالفاظ أن الانسان الواحد وحده لا يستقل بجميع حاجاته بل لا بد من التعاون ، ولا تعاون الا بالتعارف ، ولا تعارف الا بأسباب كحركات أو اشارات أو نقوش أو ألفاظ توضع بازاء المقاصد ، وأيسرها وأفيدها وأعمها الالفاظ » .

لغـــة بـــابـــل

جاء فى سفـــر التكوين :

« كان الناس يستعملون لغة واحدة وكلمات واحدة

قـــال يهـــوه :

« هيا بنا ! لنهبط ! ولنخلط هناك كلامهم حتى لا يفهـــم بعضهم بعضا .

ومن هناك فرقهم يهوه شيعا فى جميع أرجـــاء الارض ، فكفوا عن بناء المدينة .

وهكذا سميت بابل ، لأن يهوه خلط فيهـــا كلام جميـــع سكان الارض ، ومنها فرقهم شيعا فى كل أرجاء المعمور » .

هذه فقرات من قصة شتات أهـــل بـــابـــل كما وردت فى سفر التكوين .

لم يكن لهؤلاء الناس ــ الذين شتتهم (يهوه) أى ذنب فى الظاهر ، فهم انما كانوا يريدون أن يبـــنوا مدينـــتهم وأن يستقروا فيها تجمعهم لغة واحدة . ربما قصد (يهـــوه) الى منع سكان بابل من أن يطغوا ويتجبروا اذا قامت لهم حضارة وعمران ، وجمعتهم لغة واحدة .

وقد جاء الشتات كما يقصه (سفـــر التكوين) فتعددت الالسن واللغات ، فكانت تلك لعنة (بابل) التى أصبحت رمزا لاختلاف كلام الناس وتفرقهم شعوبا وقبائل .

ومن الطريف فى هذا الباب ما رواه السيوطى فى (المزهر) قـــــال :

« أخرج ابن عساكر فى التاريخ بسند رواه عن أســـد بن مالك موقوفا ، قال : لما حشر الله الخلائق الى بابل بعث اليهم ريحا ، فاجتمعوا ينظرون لماذا حشروا له ، فنادى مناد : من جعل المغرب عن يمينه والمشرق عن يساره واقتصـــد البيـــت الحرام بوجهه فله كلام أهل السماء . فقام يعرب بن قحطان فقيل له : يا يعرب بن قحطان بن هود ، أنت هـــو ؟ فكان أول من تكلم بالعربية المبينة ، فلم يزل المنادى ينادى من فعل كذا وكذا فله كذا وكذا حتى افترقوا على اثنين وسبعين لســانـــا ، وانقطع الصوت وتبلبلت الالسن فسميت بابل . وكان اللسان يومئذ بابليـــا » .

وصدق الله عز وجل فى قوله : « وما كان الناس الا أمة واحدة فاختلفوا ، ولولا **كلمة** سبقت من ربك لقضى بينهم » .

كلمـــة اللـــه

يخبرنا القرآن الكريم أن الله تعالى علـــم آدم الاسماء كلها ، أى علمه الكلام ، ومنه كلمة التوحيد .

ولمـــا كانت العداوة هى الاصل فى الحيـــاة على الارض : « قلنـــا اهبطوا منها بعضكم لبعض عـــدو ، ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين » (البقرة ، 36) ، فان كلمـــة الله ، الدالة على وحدانيته والمفعمة بغفرانـــه ، كانت الطريـــق الى الهداية والطمأنينة والنظام : « فتلقى آدم من ربـــه كلمـــات فتاب عليه » (البقرة 37) « فاما يأتيكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (البقرة 38) وكانت هذه الكلمة ميراثا يتركه السلف للخلف من أنبياء الله وأصفيائه وأوليائه : « واذ قال ابراهيم لابيـــه وقومه اننى بـــراء ممـــا تعبدون ، الا الذى فطرنى فانه سيهدين ، وجعلها **كلمة** باقيـــة فى عقبه لعلهم يرجعون » (الزخرف ، 27) والمقصود هنا كلمة التوحيد . وقال تعالى : « فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، والزمهم كلمة التقوى ، وكانوا أحـــق بهـــا وأهلهـــا (الفتح ، 26) فهذه هى الهداية التى يمن الله بها على عباده المؤمنين المتقين . ومن معانى « الكلمة » فى هذه الآية الاخيرة الثبات والوفاء بالعهد .

وتحلق كلمة الله فى أجواء نورانية تنير السبيل لانبيائه وأصفيائه ، وذلك فى مثل قوله تعالى مخاطبا نبيه زكرياء : « فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب : ان الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين » (آل عمران ، 39) .

وتصدر عن الله كلمة تتجسم فى صورة نبى من أنبيائه الطاهرين : « اذ قالت الملائكة : ان الله **يبشرك بكلمة منه** اسمه المسيح عيسى بن مريم » (آل عمران ، 45) .

وتأتى الكلمة بمعنى الحكمة الالهية والمشيئة الربانية التى تسبق الحوادث والظواهر والموجودات : « وما كان الناس الا أمة واحدة فاختلفوا ، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم » (يونس ، 19) « وتمت **كلمة** ربك صدقا وعدلا ، لا مبدل لكلماته ، وهو السميع العليم » (الانعام ، 115) قال الراغب الاصفهانى فى (الغريب فى مفردات القرآن) « ان الكلمة فى هذه الآية معناها القضية فكل قضية تسمى كلمة سواء كان ذلك مقالا أو فعالا » . وانا أرى أن الكلمة هنا تعنى الحكم والقضية فى آن الوقت ، وحكم الله صادق وعادل لا يقبل التبديل ولا التحريف .

وجاءت الكلمة بمعنى الحكم أيضا فى قوله تعالى « كذلك حقت **كلمة** ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون (يونس ، 96) وفى قوله تعالى : ان الذين حقت عليهم **كلمة** ربك لا يؤمنون (يونس ، 96) .

وكلمة الله لطفه وجزاؤه العادل : « وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا » (الاعراف ، 137) .

وكلمته ارادته تعالى ومشيئته التى تعلو على كل شىء : « **وكلمة** الله هى العليا ، والله عزيز حكيم » (التوبة ، 41) .

ومن معانى الكلمة فى القرآن الكريم « الوعد » كما جاء فى قوله تعالى : « أفمن حق عليه **كلمة** العذاب أفأنت تنقذ من النار (الزمر ، 19) والكلمة تقابل الكذب والفحش كما يفهم من هذه الآية الكريمة : « كبرت **كلمة** تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا (الكهف ، 51) وتؤدى معنى الوعد الكاذب فى قول الله عز وجل : « حتى اذا حضر أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت . كلا ، انها **كلمة** هو قائلها » (المؤمنون ، 100) .

وجاءت بمعنى الحكم الفصل فى قوله تعالى : « أم لهم من الدين ما لم يأذن به الله ولولا **كلمة** الفصل لقضى

بينهم » (الشورى ، 21) وفى معناها : « ولـولا **كلمـــة** سبقت من ربك الى أجل مسمى لقضى بينهم » (طه ، 129) .

وفى القرآن الكريم آيـات ورد فيهـا ذكـر الكـلام ، والكلمات ، والكلم (جمعا) والتكلم (**فى صيغة الفعل**) .

قال تعالى : « يريدون أن يبدلوا **كـــلام** الله ، قل لن تتبعونا ، كذلكم قال الله من قبل » (الفتح ، 15) ولعل المراد بالكلام هنا أوامر الله . وقال تعالى « فتلقى آدم من ربـه **كلمـــات فتاب عليه** » (**البقرة** ، 37) . **ويفهم من ظاهر** الآية أن الله تعالى غفر لادم خطيئته بعد استغفاره .

وكلمات الله أوامره ونواهيه وحكمته البالغة وآيـاته فى الاكوان والخلائق وعلمه بخفايا الأمور وظواهرها . وعلى ذلك تدل عدد من الآيات الكريمة التى نذكر منها :

« قل لو كان البحر مدادا **لكلـمـات** ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى » (الكهف ، 109) ، « فآمنوا بالله ورسوله النبـى الأمى الذى يؤمـن بالله **وكلمـاتـه** » (الاعراف ، 158) « ويريد الله أن يحق الحق **بكلمـاتـه** (الانفـال ، 7) .

وجاء « الكلم » بمعنى القرآن الكريم فى قولـه تعالى : « يحرفون **الكلـــــم** عن مواضعه » (النساء 42 ــ المائدة 12) .

كما جاء بمعنى الدعاء الذى يتوجه به المؤمن الى ربـه ، وذلك فى قوله تعالى : « اليه يصعـد **الـكـلـــم** الطيـب ، والعمل الصالح يرفعه » (فاطر 10) .

وفى القرآن الكريم آيات ورد فيها فعل « التكلم » نذكر منها قوله تعالى :

« اليوم نختم على أفواههم ، **وتكلمـنـا** أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون » (يس ، 65) .

ويعلم الله كيف تتكلم الايدى شاهدة بأعمال اصحابها ، ان خيرا أو شرا .

« **وكلـــم** الله موسى **تكليمـا** » (**النساء ، 164**) أى أسمعه كلاما من غير وساطة ملك ، ولا يمكن لعقولنـا أن تتصور كيف تم هذا التكليم الكريم .

وقد سبـق أن ذكرت فى معرض التحـدث عن الكـلام بالاشارة قوله تعالى : « آيتك ألا **تكلـــم** الناس ثلاثة أيام الا رمزا » (آل عمران ، 41) .

وقال تعالى : « واذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة **تكلمهـــــــم** » (النمل ، 82) أى تخاطبهم ، وقيل : تجرحهم من الكلم أى الجرح . ولعل المخاطبة أقرب الى المعنى المقصود اذا نظرنا الى الجزء الاخير من الآية « أن الناس كانوا بآياتنا يوقنون » وقال عز وجل : « وما كان لبشر أن **يكلمـــــــه** الله الا وحيا أو من وراء حجاب » (الشورى ، 51) والمعروف أن الله قد خص نبيه موسى بأن كلمه تكليما .

وفى اللاهوت المسيحى المستمـد من تعاليـم يوحنـا أن الكلمة ـ Verbun باللاتينية ـ هو الشخص أو الاقنوم الثانى الذى يجسده المسيـح عيسى ضمن الثالـوث المعروف عنـد المسيحيين الكاثوليك ـ جاء فى انجيل يوحنـا « فى البـدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله » (الاصحاح الاول) . ولا حاجة الى القول بأن عقيـدة التوحيد الاسلامية تنكر التثليث وتاليه عيسى .

وقد أخذت التعاليم المسيحية الحديثة المستمدة من (سان توما) بتفسير آخر لكلمة الله لخصه (المعجم الموسوعى الكبير لاروس) كما يلى :

« أول ما صدر عن الله : الكلمة التى هى كون (أوتولد) حقيقى ؛ وتصدر الكلمة بحسب معرفة الله لجميع الاشياء » .

يقول السيد الشريف الجرجانى فى (التعريفات) « وكلمة الحضرة اشارة الى قوله : كن ! فهى صورة الارادة الكلية » .

ونقل الدكتور صليبا فى معجمه الفلسفى عن الفيلسوف الفرنسى (مالبرانش N. de Malebranche) قوله : « الكلمة الالهية من جهة ما هى عقل كلى تعقل المعانى الاولية لجميع الكائنات المخلوقة أو الممكنة » وقوله : « وجميع العقول ليس لها الا معلم واحد ، وهو الكلمة الالهية » . (انظر : أحاديث حول الميتافيزقا والدين ، Entretiens sur la métaphysique et la religion)

علم الكلام

يمكننا أن نقول بأن « الكلام » هو علم الجدل فى العقيدة على النهج الاسلامى ؛ قال الشريف الجرجانى فى (التعريفات) : « الكلام علم يبحث فى ذات الله تعالى وصفاته وأحوال الممكنات من المبدأ والمعاد على قانون الاسلام . . . وقيل : الكلام هو العلم بالقواعد الشرعية الاعتقادية المكتسبة عن الادلة » وواضح أن « الادلة » هذه هى التى تجعل من « الكلام » علما قائما على الجدل .

واذا كان المعنى الأصلى للجدل فى لغة العرب هو « اللدد فى الخصومة والقدرة عليها » ، فان معناه عند الفلاسفة « هو القياس المؤلف من المشهورات والمسلمات . والغرض منه الزام الخصم واقحام من هو قاصر عن ادراك مقدمات البرهان » ــ كما فى (التعريفات) للجرجانى ، والمقصود به تصحيح كلام الخصم ، « وهو الخصومة فى الحقيقة » حسب نفس المصدر . وهو بهذا المعنى يقترب الى حد ما من لفظ Dialectique الفرنسى ، وذلك اذا جردناه من التعقيدات التى يضيفها اليه أصحاب المذهب الذين ينعتونه بالجدل المادى .

فالجدل اذن نوع من « الكلام » القائم على الحجة والبرهان ، بل حتى على اللدد والسفسطة .

يقول الامام الغزالى : المقصود من الكلام « حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها عن تشويش أهل البدعة » . ويبدو أن هذا القول انما يتناول المقصود من علم الكلام فى أول نشأته ، وذلك أن من يسميهم الامام الغزالى بأهل البدعة يعتبرون أنفسهم ويعتبرهم غيرهم من « المتكلمين » ، وهم ــ ان شئت ــ الطرف الخصم فى هذا العلم الذى أعطى للكلام وطاقاته الخفية بعداً خاصا .

تتـابـع المعـانـى

الآن وقد وصلت الى نهاية المطاف ارى أن هذا المقال ربما يبقى مبتورا لو لم أختمه بعرض موجز لبعض الالفـاظ التى تقترب بشكل ما من الكلمة والكلام والتى تحضرنا غالبا بطريق تتابع الافكار وتداعيها . ومعلوم أن هذا الباب قد حظى بعناية بعض فقهاء اللغة وواضعى معاجم المعانى من القدماء والمحدثين .

ولنكتف فى ذلك بأمثلة من تلك الالفاظ والتعابير نوردهـا فيمـا يـلى :

الكلمـــــــة . العبارة ، اللفظـة ، المفـردة ، الجملة ، المقولة ، القصيدة ، الفكـرة ، الخطبة ، العبـارة ، المترادف ، المـتـــوارد . . .

الكـــــــلام . النطق ، القـول ، اللهجـة ، الحديث ، اللغة ، اللغو ، الجملة ، الاسناد ، الوضع ، الجدل ، الحوار ، الهمس ، الهس (الكلام الباطنى) ، العى ، الحصر ، الثرثرة ، الهذيان ، الهدر ، الرطانة (وهو كل كلام لا يفهمـه العرب) التعبير ، الاعراب ، المنطوق ، المفهوم ، البـذاءة ، الذلاقـة ،

السلاطة ، الركاكة ، الايجاز ، الاطناب ، البلاغة ، الفصاحة ، البيـــان ، المعنـــى . . .

* * *

وبعد ، فان قوام الكلمة الفكرة ، وحليتها حسن التبليـــغ مع القصد ، وحكمتها أن تقرب الناس بعضهم من بعض ، وان تضفى على المجتمع البشرى معناه الخلقى ، وان تجعل المدنية أمرا مقبولا مستساغا . واذا لم تكن الكلمة كذلك فخير منها السكوت . وبعض السكوت أبلغ من الكلام المنطوق .

الربـــاط **محمد العربى الخطابى**